مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٤

مدخل للعبادة المسيحية (١)

إعداد: رأفت موسى ذكري

مدخل للعبادة المسيحية (١)

رأفت موسى ذكري
باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائيَّة
raafatmoussa@alexandriaschool.org

مقدمة

يعلن الله عن ذاته للإنسان لأن الإنسان غير قادر أن يعرف عن الله، بدون مبادرة من الله نفسه، فالإعلان الإلهي هو مبادرة إلهية يتبعها فعل استقبال بشري. وهكذا تعلمنا من مطلع الرسالة إلى العبرانيين «الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديمًا بأنواع و طرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثًا لكل شيء الذي به أيضًا عمل العالمين» (عب ١:١ ـ ٢). هكذا لم تنقطع إعلانات الله عن الآباء إلى أن كان الإعلان الأخير والنهائي في شخص يسوع المسيح الذي هو بهاء مجده ورسم أقنومه (انظر عب ١: ٣ بحسب ترجمة القطمارس القبطي).

كان استقبال البشر للإعلان الإلهي مرتبطًا بمقدار استيعابهم للإعلان؛ لهذا كلمهم الله بطرق كثيرة، هذا الاستقبال البشري للإعلان الإلهي تحول سريعًا إلى عبادة تتمحور حول المفاهيم الإلهية والتي عرفها البشر من خلال إعلانات الله وهذا ما جعل الحدث التالي لكل حديث بين الله والبشر؛ بناء مذبح للرب الإله كفعل تذكرة للعهد بين الله والبشر.

هذا الفعل ظل شاهدًا على عهدٍ بين الله وإنسان يُتناقل هذا العهد من جيل إلى جيل وينمو في الضمير الجمعي بحيث يكون هذا الفعل العبادي هو نفسه كقاعدة انطلاق للعلاقة بين الله والبشر، فلم يكن خروج شعب إسرائيل من مصر هو العهد الأول بين الله والشعب ولكن قليلاً قليلاً أصبح هو فعل التذكرة الأهم في ضمير الأمة اليهودية. هذا الأمر هو أول مراحل استقبال البشر للإعلان إلى أن جاءت المرحلة التالية وهي مرحلة تسجيل الوحي الإلهي

على يد كتبة الوحي الإلهي من أنبياء وكانت مرحلة التسجيل - والتي تمت في مرحلة زمنية طويلة حتى زمن الكتابات الإنجيلية - متداخلة مع مرحلة نمو العبادة والتي هي في أساسها ترجمة للإعلان الإلهي. وكما علمنا الوحي الإلهي نفسه في الرسالة إلى العبرانيين أن آخر مراحل الإعلان كان في شخص ابن الله المتجسد ربنا يسوع المسيح. وهنا لم تتنكر المسيحية لرصيد البشرية من الأفعال الليتورجية التعبدية ولكنها أعادت أفعالها لتكون متمركزة ومؤسسة في شخص الابن الذي هو واحد مع أبيه وهو الوحيد الذي أخبرنا علانية عن الآب وكان هدفه الأساسي هو إعادة البشرية إلى حضن أبيه. وهذا الإعلان الأخير لم يمنع البشرية من أن تنمو في فهم الإعلان الإلهي والمؤسس على شخص ربنا يسوع المسيح من خلال العبادة الليتورجية.

فالعبادة الليتورجية هي الترجمة الحقيقية والصريحة لإيمان الكنيسة، وتاريخها هو فعل التذكرة القائم والحي والنامي والمعبر والحافظ لما تسلمته الكنيسة.

منذ أول آية في سفر التكوين يخبرنا الإعلان الإلهي أن الله هو آب على نحو ما، بمعنى أنه يعتني بالخليقة حتى إنّه يراها حسنة جدًا، وهذا ما عبر عنه القديس لوقا في سرده لسلسلة نسب المسيح إذ يقول «و لما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة و هو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي ... بن انوش بن شيت بن آدم ابن الله» (انظر لو٣: ٢٣ - ٣٨).

وهكذا عبَّرت الليتورجية - والتي هي نمو في فهم الإعلان الإلهي المكتوب - عن إيمان الكنيسة بأبوة الله والتي ظهرت لنا بوضوح ظاهر من خلال شخص ابنه.

العبادة في الكنيسة القبطية

لما كانت الكنيسة القبطية هي كنيسة ذات تراث ثقافي خاص يمتد إلى ما قبل قدوم المسيحية إليها على يد القديس مار مرقس؛ هذا التراث الثقافي - الذي نشأ وتطور وتثبَّت في مصر الفرعونية القديمة - كان فريدًا في أفكاره

الباحثة عن الحق مما جعل كثيرًا منه ينتقل إلى العبادة اليهودية ذاتها، تلك المعروفة بتعاليها لأفكارها وتحقيرها لكل الأفكار والعبادات الأخرى. هذا التمايز المتوارث جعل المسيحية الموجودة في مصر مسيحية فريدة، مميزة، تنطلق إلى رحاب الله متحدة بيسوع المسيح، صاعدة إلى حضن الآب باحثة عنه، وهي كائنة فيه، عاشقة اسمه فتصنعه هذيذها الخاص، تنتقل بين وديان الفكر باحثة في أعمق أعماق الكلمات لتكتشف ما وراء الحروف، محاولة نزع البرقع الموضوع لينكشف لها ضياء يسوع المسيح الكائن في وسط كنيسته منيرًا لها فلا تحتاج إلى سراج فيما بعد.

هذا التفرد المتسامي جعل مدرسة الإسكندرية اللاهوتية في موضع المنارة الفكرية الهادية والكاسرة لشوكة الظلام العقلي، عابرة سماء السموات مكتشفة مكنونات سر ابن الرب الكائن فيها ومعها والمُقَدَّمة من خلاله عروس بلا غضن لله أبيه.

هذه المدرسة اللاهوتية التي لم تكتفِ بتعميد حِكَم الفلاسفة القدماء داعية إياهم أنبياء الأمم إذ إنها اكتشفت سر بذرة **الكلمة** الكائن في الحق الإلهي المعلن مِن قبل مَن يسعى لاكتشافه. بل أيضًا سحبت اللاهوت ذو النسق الفلسفي خارج محلة الإمبراطورية لتصبغها صبغة جديدة تعتمد على نسك آباء الصحراء. هؤلاء الذين أعادوا الصياغات الإنسانية عن الله، لله، حتى يعيدها لهم أفكارًا إلهية عن الشركة بين الله والإنسان.

أنطونيوس العظيم وأولاده الكبار؛ هم درع أثناسيوس الفصيح العالم، وأثناسيوس المحارب العنيد هو لسان قلب أب الرهبان المصلي والعابد نحو الله. هذا التلاحم الفريد بين مدينة الإسكندرية ذات الأبعاد الإمبراطورية والفلسفية وبين تبدّى الصحراء التي صارت سماء بصلوات أنطونيوس وأولاده؛ جعل من اللاهوت السكندري لاهوتًا عباديًّا ينطلق من اللفظ إلى الاتحاد بغير الملفوظ عنه، ومن العبادة إلى الشركة بذاك الذي بتسامية نزل إلى الجحيم من قبل الصليب.

هذا التسامي العبادي جعل من كنيسة مصر، كنيسة تعبد عريسها بطريقة فريدة، بطريقة تحتاج أن يُعاد اكتشافها على مر الأجيال. هذا التعليم اللاهوتي الإيماني لم ينقطع عن كنيسة مصر أبدًا، حتى في أشد عصور الضيق، فمن يُسبِّح تسبحة الشاروبيم من كل قلبه لا يمكن أن ينفصل أبدًا عن الشركة مع السمائيين ولا عن ترديد تسبحة موسى عبد الرب وترنيمة الخروف ولا عن سماع نداء الروح والعروس.

ما بين التقليد القبطي والكنائس التقليدية الأخرى

في أوائل القرن العشرين مع الثورة البلشفية[1] وهجرة كثير من المسيحيين الروس إلى الشتات، خاصة الولايات المتحدة وفرنسا. تعرّف اللاهوتيون الروس إلى الانفتاح الإنساني لأول مرة واكتشفوا الفجوة الشديدة بين انفتاح العلمانية الفرنسية التي احتضنتهم وبين اللاهوت الغربي المسيحي[2] بشقيه الكاثوليكي والبروتستانتي، وكانت المقولة السائدة حينذاك عن الأرثوذكسية أنها المنهجية الوسطية بين كليهما. لكن هذه الوسطية لم تعرف أن تجيب على التساؤلات المطروحة من جانب العلمانية. هؤلاء المهاجرون في أغلبهم دارسين للفلسفة وأساتذة في مجالاتها، استطاعوا أن يعيدوا اكتشاف اللاهوت الأرثوذكسي البيزنطي والروسي الذي هو في أساسه

---

[1] البلشفية (بالروسية: Большевик) أو البلاشفة أو البلشفيك التي تعني الكثرة أو الأكثرية وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري من أنصار لينين، في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها عام ١٩٠٣. وكانوا يشكلون الأكثرية في الحزب، بينما سُمي البقية بالمونشفيك (أي الأقلية)، وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري بينما الأقلية تسعى للتغيير السلمي. والثورة البلشفية أو ثورة أكتوبر كانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية عام ١٩١٧ قادها البلاشفة تحت إمرة فلاديمير لينين وليون تروتسكي في ١٩١٧ بناء على أفكار كارل ماركس؛ لإقامة دولة شيوعية وإسقاط الجمهورية الديموقراطية. تعد الثورة البلشفية أول ثورة شيوعية في القرن العشرين الميلادي وقد تبعها كثير من الثورات الشيوعية في كثير من بلدان العالم. للمزيد انظر، تيموثي وير، *الكنيسة الأرثوذكسية في الماضي والحاضر*، منشورات النور، بيروت ١٩٨٢، تحت عنوان الأرثوذكسية والإلحاد الثوري، ص ١٨٥.

[2] بعد الانشقاق الكبير الحادث بين كرسي روما وكرسي القسطنطينية في العام ١٠٥٤م انقسم الفكر المسيحي بين الشرق والغرب ومثّل التفكير الغربي روما أولاً، وكان التفكير القانوني بمثابة حجر الزاوية للاهوت روما. وهكذا أيضًا يستمر التفكير القانوني للتعبير عن الإيمان المسيحي حتي فيما بعد ما عُرف بحركة الإصلاح البروتستانتي في زمن مارتن لوثر وكلفن. للمزيد انظر، تيموثي وير، *الكنيسة الأرثوذكسية في الماضي والحاضر*، منشورات النور، بيروت ١٩٨٢.

متصارع مع اللاهوت الغربي الكاثوليكي في أطروحاته ومعالجته للقضايا، مما جعل انهيار المقولة السائدة عن وسطية الأرثوذكسية أمرًا حتميًّا[٣]، إذ تم اكتشاف الانطلاق اللاهوتي للأرثوذكسية البيزنطية المبني على الفخامة الإمبراطورية والمعجون في انفتاح العلمانية الفرنسية بمقوله جديدة كانت هي الأساس له. إن الأرثوذكسية تنطلق من انطلاق اتحادي باللّه غير مؤسس على الأساس القانوني القائم في اللاهوت الغربي. وكانت هنا الانطلاقة لتقديم الأرثوذكسية (الشرقيّة) في الشتات.

من يقرأ لكُتّاب روس تحديدًا ومن بعدهم كُتّاب بيزنطيين؛ نجد أنهم قد حاولوا عمل توافق موضوعي بين المبادئ العلمانية الفرنسية التي احتضنتهم بعد الاضطهاد الشيوعي وبين التعليم المسيحي المؤسس على تعاليم آباء الكنيسة الأرثوذكسية الخلقيدونية (سيتم طرح هذا الأمر بالتفصيل حين الدخول في تفاصيل مبحثنا اللاهوتي حول العبادة المسيحية)، وكأنها نفس محاولة القديس إكليمندس السكندري الذي طوَّع التعليم الفلسفي لشرح التعليم المسيحي الإلهي. الفارق بين المحاولتين هو فارق زمني بما يحمله الزمن من تاريخ وأحداث ومتغيرات وصراعات ونضج وتطور سواء على مستوى الفكر أو على مستوى التعبير.

إذًا نحن أمام محاولة لاكتشاف الإيمان المسيحي الذي عاش في صراعات لاهوتية بين الشرق والغرب في الألفية الثانية في ضوء المبادئ العلمانية الفرنسية التي أبهرت العالم كله ولا يجب أن ننسى، أن الانطلاقة الفكرية الكبرى للكنيسة الكاثوليكية لم تصل إلى ذروتها إلا فيما بعد المجمع الفاتيكاني

---

[٣] قد أستعمل خومياكوف وهو من اللاهوتيين الروس في أواخر القرن التاسع عشر – أي قبل الثورة الروسية – في إحدي رسائله مثلاً ليصف الموقف الأرثوذكسي تجاه سائر المسيحيين. قال إن أحد المعلمين سافر تاركًا تعاليمه لتلاميذه الثلاثة. الأكبر كرر بأمانه ما لقنه إياه معلمه ولم يغير منه شيئًا. أحد الإثنين الباقيين أضاف على هذا التعليم، والآخر حذف منه جزءًا. بعودة المعلم لم يشعر بالغضب تجاه أي منهم، ولكنه توجه بالقول للتلميذين الصغيرين، قائلاً: أشكرا أخيكما الأكبر، فبدونه لما استطعتما المحافظة علي الحقيقة التي سلمتها إليكم. ثم قال للكبير: أشكر أخواك الصغيران، فبدونهما لما كنت فهمت الحقيقة التي سلمتها اليك. انظر؛ كالستوس (تيموثي) وير، *الكنيسة الأرثوذكسية أيمان وعقيدة*، منشورات النور، بيروت ١٩٨٢، ص ١٥٧.

الثاني[٤] والتي كانت قبله تعيش صراعات سياسية وسيادية (كان الصراع الشديد جدًّا بين البابوية الرومانية والدولة الإيطالية وخصوصًا في مرحلة الحرب العالمية الثانية حيث كانت المطالبات الشديدة بإنهاء كل مظاهر السياسة الكنسية ورفع يد الكنيسة عن كل شيء حتى إدارة الكنائس وتعيين الإكليروس وعلى الجانب الآخر مورثات الكنيسة الكاثوليكية من سلطة وتاريخ وحكم مدني ولا يجب أن ننسى أن رأس الحكومة الإيطالية في هذه الحقبة هو موسوليني الزعيم الفاشي الذي أراد أن يجمع كل السلطات في يده ليكون هو الواحد والأوحد) ما جعلها تنشغل عن محاولة الإجابة على أسئلة الفلسفة العلمانية وفي نفس الوقت الرفض التام من جانب العلمانية لكل ماهو إكليركي كاثوليكي بسبب التاريخ القمعي للكنيسة الكاثوليكية وخاصة في فرنسا.

هذه النظرة للاهوت الأرثوذكسي الخلقيدوني تجعل من يدقق النظر إليها يفكر كثيرًا، عن من هم آباء الكنيسة البيزنطية المعتمدة عليهم في تأسيس الانطلاقة اللاهوتية الجديدة التي كانت في أوائل القرن العشرين، نجد أن إنتاجهم اللاهوتي يغلب عليه ما يمكن أن نطلق عليه «لاهوت رد الفعل»، على سبيل المثال لا الحصر؛ الصراع الدائر بين تلاميذ غريغوريوس بالاماس وبين المدرسيين من تلاميذ توما الايكويني ولومباردي فيما بعد، هو صراع قصور وأمراء وولاة وفخامة ليتورجية يحضرها الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية لابسًا ملابس ذهبيّة أو يحضرها بابا روما الحبر الأعظم رأس الكنيسة المنظور! (هذا اللفظ خاص بالتعليم الكاثوليكي حول البابا رأس الكنيسة الأول) وطبقة رجال الكهنوت التي تعلو فوق طبقة الملوك والأمراء. هنا لسنا في مجال تقييم لحوادث التاريخ ولكننا في مجال البحث عن الجذور القبطية للتعرُّف على أهم ما يميزها.

---

[٤] المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢– ١٩٦٥) والذي دعى البابا يوحنا الثالث والعشرين إلى انعقاده وتمم جلساته البابا بولس السادس، حاول أن يقدم رؤى لاهوتية قادرة علي قبول كثير من أفكار المجتمعات الغربية العلمانية ولكن بدون التخلي عن التاريخ التقليدي المتوارث للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وربما نختلف في بعض ليس بقليل حول أُطروحات المجمع، ولكننا أمام محاولة ربما تنمو وتكمل في ظل الرجوع لآباء الكنيسة الشرقية الذين كتبوا باليونانية.

إذًا، هل اللاهوت القبطي الأرثوذكسي مختلف؟! الإجابة **نعم** اللاهوت القبطي السكندري هو لاهوت منطلق ونامٍ من قبل نيقية وحتى خلقيدونية وفيما بعد خلقيدونية كلاهوت يتأسس على قاعدتين.

الأولى: الواقع الرعائي **الثانية: التدبير النسكي**

الواقع الرعائي :

منذ خلقيدونية وما قبلها وما بعدها كان المسيحيون المصريون، الذين رفضوا مقررات خلقيدونية، في واقع مأزوم، فالكنيسة متهمه بأنها هرطوقية وخائنة للدولة الإمبراطورية، وهذا الواقع الجديد الذي استمر حتى أزمنة متأخرة تكاد تقترب من القرون الوسطى، جعل اللاهوت القبطي لا يُعبِّر بألفاظ رنانة ولا يتصارع حولها إن كان المعنى واضحًا، لذا لم يكن يحتاج لتدخل سلطوي إمبراطوري لحسم الصراع، ولكنه يتجه مباشرة نحو الشعب. فالليتورجيّة القبطيّة هي ليتورجيا حيَّة متحركة فاعلة ومتفاعلة، لا تعتمد على قانون ولا على حسابات منطقية ولكنها تجد ملجأها في حرية حركة الروح؛ فمثلاً حينما تقرر السلطات عطلة الأسبوع يوم الجمعة، لا تجد الكنيسة مانع من أن تكون الليتورجية الشعبية يوم الجمعة أو حتى كل يوم، لقد عرفت الكنيسة القبطية أهمية عبارة الرب «فمن هو الوكيل الأمين الحكيم الذي يقيمه سيده على خدمه ليعطيهم العلوفة في حينها» (لو١٢: ٤٢). وهكذا أصبح همّ الكنيسة الأول هو الرعاية ومحاولة رصد الوقت للتعرف على أوقات العلوفة المناسبة.

التدبير النسكي:

هو جمال الكنيسة الخفي في رمال الصحراء، آباء جلسوا متبدّين صحراء يتصارعون فيها مع ذواتهم أولاً ليكتشفوا مواطن سقطات وقيام النفس البشرية، لا يهم التعبير عن الأحاسيس وإنما يهمهم أن يسلموا الخبرة التي عاشوها واجتهدوا لأجلها، وفي جهادهم لم ينسوا الكنيسة، فكان اختيار الآباء البطاركة والآباء الأساقفة من بين الرهبان عنصر اتحاد بين الواقع

الرعائي والتدبير النسكي، فبالرغم من وجود الأديرة في الصحراء بعيدًا عن المدن، إلا أن لاهوت كنيسة الإسكندرية القبطي تأسس على خبرة آباء الصحراء ورعاة الكنيسة الكبار علموا الشعب النسك الرهباني، ووجد رهبان الصحراء أنفسهم أمام خبرات حياتية ناتجة من أسئلة علمانية شعبية غير رهبانية عليهم أن يجدوا لها إجابات عملية وغير متناقضة مع روحهم النسكية.

هذا الاتحاد كان اتحادًا اختياريًا لم تفرضه قوة القانون ولا قوة الإمبراطورية، ولكنه كان اتحادًا حرًّا نما وتطور وكبر حتي يومنا هذا، ومازال ينمو ويكبر ويستمر في كل المستويات والمجالات ولكن كان المجال الأكثر وضوحًا هو مجال العبادة الجماعية في الكنيسة.